أحوال النفس عند الغزالي: قراءة نصية في ضوء "شرح عجائب القلب"

Al-Ghazali's Conceptions of the Soul: A Textual Reading of The Explanation of the Marvels of the Heart

أ. **عبد الكريم سي:** باحث في مرحلة الدكتوراه بقسم اللغة العربية، كلية ام إي اس ممباد، جامعة كاليكوت، كيرالا، الهند.

د. بشير بي. تي: أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية ام إي اس ممباد، جامعة كاليكوت، كيرالا، الهند.

أ. **محمد عاشق كي تي:** باحث في مرحلة الدكتوراه بقسم اللغة العربية، كلية ام إي اس ممباد، جامعة كاليكوت، كيرالا، الهند.

Abdul Kareem C.: *PhD Research Scholar, Department of Arabic, MES Mampad College, University of Calicut, Kerala, India.*
Email: abdulkareembaqawi@gmail.com

Dr. Basheer P T.: *Assistant Professor, Department of Arabic, MES Mampad College, University of Calicut, Kerala, India.*

Muhammed Ashique K T: *PhD Research Scholar, Department of Arabic, MES Mampad College, University of Calicut, Kerala, India.*

DOI https://doi.org/10.56989/benkj.v6i11.2177

تاريخ الاستلام: 2026-09-02 تاريخ القبول: 2026-10-02 تاريخ النشر 2026-11-01

الملخص:

يتناول هذا البحث مفهوم النفس وأحوالها عند أبي حامد الغزالي، من خلال قراءة تحليلية لكتاب «إحياء علوم الدين»، ولا سيما كتاب شرح عجائب القلب بوصفه جزءًا من هذا المصنَّف. ويهدف إلى الكشف عن دلالات أسماء النفس المطمئنّة واللوّامة والأمّارة، واختبار ما إذا كانت تشير، في موضع التعريف، إلى أحوال متغيرة أم إلى مراتب ثابتة. واعتمد البحث الاستقراء النصي والتحليل السياقي للنصوص ذات الصلة، مع التمييز بين عبارات الغزالي الصريحة والاستنتاجات التأويلية. ويخلص إلى أن الأسماء الثلاثة تصف، في الموضع المدروس، أحوال اللطيفة الإنسانية بحسب علاقتها بالشهوة، وأن تعميم هذه النتيجة على سائر مؤلفات الغزالي يتطلب استقراءً مستقلًا. كما يوصي بإجراء دراسات لاحقة تقارن بين نصوصه المتعلقة بالنفس والقلب، وتبحث في تطور دلالات المصطلحات النفسية في سياقاتها الفكرية والأخلاقية، بما يسهم في فهم أكثر دقة لتصور الغزالي لطبيعة النفس وتحولاتها.

الكلمات المفتاحية: الغزالي؛ النفس؛ القلب؛ أحوال النفس؛ المطمئنّة؛ اللوّامة؛ الأمّارة؛ التصوف.

Abstract

This study examines the concept of the self and its states in the thought of Abū Ḥāmid al-Ghazālī through an analytical reading of Iḥyāʾ ʿUlūm al-Dīn, particularly the section Sharḥ ʿAjāʾib al-Qalb. It aims to identify the meanings of the terms al-nafs al-muṭmaʾinna (the tranquil self), al-nafs al-lawwāma (the self-reproaching self), and al-nafs al-ammāra (the commanding self), and to determine whether, in the passage defining them, they refer to changing states or fixed levels. The study adopts textual induction and contextual analysis of relevant passages, distinguishing between al-Ghazālī's explicit statements and interpretive inferences. It concludes that, in the passage examined, the three terms describe states of the human subtle reality (al-laṭīfa al-insāniyya) in relation to desire. It further notes that extending this conclusion to al-Ghazālī's other works requires an independent textual investigation. The study recommends further research comparing his discussions of the self and the heart, examining the development of psychological terminology within its intellectual and ethical contexts, and clarifying how these concepts contribute to a deeper understanding of al-Ghazālī's conception of the self and its transformations.

Keywords: Al-Ghazālī; soul; states of the soul; heart; Sufism**.**

1. المقدمة:

ظلّ الإنسان منذ أن بدأ يتأمل ذاته، مشدوداً إلى ذلك العالم الخفي الذي تتشكل فيه إرادته، وتتصارع فيه دواعي الخير والشر، وتتردد فيه خواطر النفس بين الإقبال والإدبار، والسكون والاضطراب. ولعلّ سرّ عناية الفكر الديني والفلسفي بالإنسان الباطن يعود إلى أن ما يظهر من أفعال الإنسان ليس إلا ثمرةً لما يضطرب في داخله من قوى ودوافع وأحوال. ومن هنا غدا البحث في النفس والقلب طريقاً إلى فهم السلوك الإنساني، لا بوصفه حركةً خارجية فحسب، بل باعتباره أثراً لعالم باطني أكثر تعقيداً وعمقاً.

في التراث الإسلامي، احتلّ هذا العالم الداخلي منزلةً بارزة، ولا سيما في الكتابات التي جعلت إصلاح الإنسان وتهذيب سلوكه غايةً من غايات المعرفة. وفي هذا السياق يتقدم أبو حامد الغزالي بوصفه واحداً من أكثر المفكرين الذين منحوا القلب والنفس عنايةً واسعة، فلم ينظر إليهما منفصلين عن المعرفة والعمل، بل أقام بينهما صلةً وثيقة تجعل صلاح الظاهر وثيق الصلة بحال الباطن، وتجعل تزكية النفس مساراً معرفياً وأخلاقياً وروحياً في آنٍ واحد.

من هذا المنظور أفرد الغزالي في إحياء علوم الدين كتاب شرح عجائب القلب، فجعل القلب موضعاً للمعرفة والمجاهدة، وميداناً تتجاذبه قوى ودوافع شتى. وفي أثناء حديثه عن حقيقة النفس ومعانيها، يورد أسماء المطمئنّة واللوّامة والأمّارة بالسوء، ويربط اختلاف هذه التسميات باختلاف أحوال اللطيفة الإنسانية. وهنا تبرز مسألة تبدو في ظاهرها اصطلاحية، لكنها تمسّ صميم البناء التصوري عند الغزالي: هل تدل هذه الأسماء على مراتب ثابتة تتدرج فيها النفس، أم أنها أوصاف لأحوال متغيرة تطرأ على ذات واحدة بحسب علاقتها بالشهوة والعقل وسائر القوى الباطنة؟

تنبع أهمية هذه المسألة من أن مصطلح مراتب النفس شاع في بعض الكتابات اللاحقة، حتى غدا يُستعمل أحياناً وكأنه تعبير مستقر في نص الغزالي نفسه. غير أن القراءة الدقيقة للنص تقتضي العودة إلى سياقه، وتتبع ألفاظه، والتمييز بين ما يصرّح به الغزالي وما استقر في الدراسات اللاحقة من تصنيفات وتأويلات. ومن هنا لا يسعى هذا البحث إلى نفي قيمة تلك التصنيفات أو إثباتها ابتداءً، وإنما إلى اختبار مدى انطباقها على النص الغزالي في الموضع المدروس.

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال خطوات مترابطة :أولًا، استقراء المواضع التي يتناول فيها الغزالي النفس والقلب والقوى الباطنة في كتاب شرح عجائب القلب من» إحياء علوم الدين«، مع الرجوع إلى المواضع المتصلة داخل الكتاب نفسه عند الحاجة إلى تفسير العبارة؛ ثانيًا، تحديد الدلالة الاصطلاحية لكل لفظ بحسب سياقه، وعدم افتراض ثبات معناه في جميع المواضع؛ ثالثًا، تحليل العبارات التي يعرّف بها الغزالي النفس المطمئنّة واللوّامة والأمّارة، وربطها بوصفه للقوى

والخواطر المؤثرة في القلب؛ رابعًا، التمييز في عرض النتائج بين النص الصريح والاستنتاج التركيبي الذي يستخلصه الباحث من جمع مواضع متعددة .وتتمثل وحدة التحليل في العبارة أو الفقرة ذات الصلة المباشرة بمفهوم النفس وأحوالها، ومعيار إدراج النص هو اتصاله بتعريف النفس أو تفسير تغير حالها .ويقتصر الاستنتاج الرئيس على النصوص المدروسة، ولا يُعمَّم على مجموع فكر الغزالي أو جميع مؤلفاته إلا بعد استقراء مستقل.

ينطلق البحث، في ضوء ذلك، من فرضية مؤداها أن الأسماء الثلاثة في موضع التعريف عند الغزالي أقرب إلى الدلالة على أحوال اللطيفة الإنسانية منها إلى الدلالة على جواهر أو طبقات مستقلة، وأن فهم هذا التمييز يتيح قراءة أكثر اتزاناً لتصوره عن النفس، ويكشف عن بناء دينامي يقوم على الصراع والمجاهدة والتحول، لا على سلم ثابت مغلق

بذلك يحاول هذا البحث أن يعيد السؤال إلى موضعه الأول: لا ماذا سمّى الغزالي النفس فحسب، بل كيف تصوّر حركتها وأحوالها، وكيف تتبدل من حال إلى حال؟ ومن هذا السؤال تبدأ قراءة النص، ومنه تتضح الحدود بين ما قاله الغزالي وما أضافته القراءات اللاحقة إليه.

تناولت دراسات سابقة جوانب متعددة من تصور الغزالي للنفس. فقد بحث الدوكالئ (2022) حقيقة النفس الإنسانية في فكر الغزالي، مع إبراز الصلة بين التصور النفسي والأخلاقي؛ ودرس حميدات (2019) تحليل النفس وتشخيص أحوالها وأمراضها ووسائل علاجها؛ وتناول المزّلم (2024) الأصول النفسية والتربوية في فكر الغزالي من خلال تحليل عدد من المراجع. أما Saari (1998) فقارن بين تصورات القلب والروح والنفس في «إحياء علوم الدين» و«الرسالة اللدنية». وتلتقي هذه الأعمال مع البحث الحالي في عنايتها بمفهوم النفس ومشروع التزكية عند الغزالي، لكنها تتجه إلى أسئلة أوسع أو إلى المقارنة بين مؤلفات ومجالات متعددة. وتتمثل إضافة هذا البحث في اختبار دلالة أسماء النفس الثلاثة في سياقها النصي المحدد، والتمييز بين وصف الأحوال وافتراض مراتب ثابتة، مع بيان حدود ما يسمح به النص من استنتاج، من غير ادعاء استيعاب جميع مؤلفات الغزالي. (الدوكالي، 2022؛ حميدات، 2019؛ المزّلم، 2024).

2. الإطار الاصطلاحي: القلب والروح والنفس والعقل

2-1. موقع كتاب شرح عجائب القلب من مشروع الغزالي

يحتل كتاب شرح عجائب القلب، وهو أحد كتب» إحياء علوم الدين«، موقعًا محوريًا في البناء المعرفي والتربوي للمصنَّف؛ إذ يعلّل الغزالي عنايته بالقلب بأن شرف الإنسان وفضيلته يرجعان إلى استعداده لمعرفة الله، وأن القلب هو العالم بالله والمتقرّب إليه والعامل له، في حين أن الجوارح أتباع وخدم وآلات (الغزالي، 2004، ج3، ص877).

يربط الغزالي معرفة القلب بمعرفة النفس والرب، فيقول: من جهل قلبه فهو بغيره أجهل، مشيراً إلى أن جهل الإنسان بقلبه ونفسه يحول بينه وبين إدراك حقيقة تقلّبه وأحواله. ويكشف هذا التقديم عن بعدين متلازمين في معالجة الغزالي للقلب: بعدٍ معرفي يتصل بحقيقة الإنسان ومعرفته بربه، وبعدٍ عملي يتصل بإصلاح القلب وتهذيب أحواله. ومن هنا يغدو مفهوم التقلّب عنصراً مهماً في فهم البناء اللاحق للكتاب، إذ لا يظهر القلب في صورة حالة ثابتة، وإنما في حركة مستمرة تتبدل معها أحواله ودواعيه.

كما يكشف ترتيب الغزالي بين شرح عجائب القلب ورياضة النفس عن ترابط واضح بين المعرفة والتزكية؛ فمعرفة أحوال القلب تمهّد لتشخيص علله، بينما تتجه رياضة النفس إلى معالجة تلك العلل وتقويم السلوك. ومن ثم فإن البحث في أحوال النفس لا ينفصل عن المشروع التربوي العام الذي ينتظم كتاب الإحياء.

2-2. اشتراك الألفاظ واتحاد المسمّى

يستهل الغزالي حديثه عن هذه المفاهيم بتنبيه منهجي إلى أن جانباً كبيراً من الخطأ في فهمها يرجع إلى الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة (الغزالى، 2004، ج3، ص879). ويبين أن الألفاظ الأربعة: القلب والروح والنفس والعقل، قد تستعمل لمعانٍ متعددة، فيذكر القلب الجسماني، والروح الجسماني، والنفس الشهوانية، والعلم، ثم يضيف معنى خامساً هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان (الغزالى، 2004، ج3، ص880).

تكتسب هذه الإشارة أهمية منهجية بالغة؛ لأنها تمنع من حمل لفظ النفس على معنى واحد في جميع المواضع. فدلالة المصطلح عند الغزالي تتحدد بحسب السياق الذي يرد فيه، الأمر الذي يقتضي أن يسبق أي حكم على أحوال النفس تحديدُ المعنى الذي يحمله اللفظ في الموضع المدروس. ومن هنا يصبح التمييز بين مستويات الدلالة شرطاً لفهم البناء الاصطلاحي للنص.

2-3. القلب بين الدلالة الجسمانية والدلالة الروحية

يميّز الغزالي بين القلب باعتباره عضواً جسمانياً، وهو اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وبين القلب باعتباره لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلّق (الغزالي، 2004، ج3، ص879). ويجعل هذه اللطيفة حقيقة الإنسان؛ فهي المدرك العالم العارف، وهي المخاطَب والمعاقَب والمعاتَب والمطالَب.

لا يقف الغزالي عند بيان هذا التمييز، بل يحدد كذلك مجال بحثه، فيصرّح بأن مقصوده حيث يطلق لفظ القلب هو هذه اللطيفة، وأن غايته ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها (الغزالي، 2004، ج 3، ص879). وتكتسب هذه العبارة أهمية خاصة في سياق الدراسة؛ لأنها تحدد المستوى

الذي يتحرك فيه خطاب الغزالي: فهو لا يسعى هنا إلى بناء نظرية في ماهية اللطيفة، وإنما إلى الكشف عن أوصافها وأحوالها وآثارها في السلوك.

فإن الحديث عن النفس في هذا السياق ينبغي أن يُقرأ في ضوء هذا الحد المنهجي؛ إذ يتعلق أساساً بكيفية ظهور هذه اللطيفة في أحوالها المختلفة، لا بإثبات ذوات أو جواهر نفسية مستقلة.

2-4. النفس بين تعدد الدلالة وتعدد الحال

يعرض الغزالي للنفس بمعنيين أساسيين يتصلان بمقصده في هذا الموضع. أولهما المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، وهو المعنى الغالب في اصطلاح أهل التصوف؛ لأنهم يقصدون به الأصل الجامع للصفات المذمومة، ومن ثم يتحدثون عن مجاهدة النفس وكسرها. وثانيهما اللطيفة التي هي الإنسان بالحقيقة، والتي توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها (الغزالي، 2004، ج3، ص880). في ضوء المعنى الثاني يذكر الغزالي الأسماء الثلاثة للنفس، فيقول: "فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنّة... وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوّامة... وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمّارة بالسوء" (الغزالي، 2004، ج3، ص880).

يكشف هذا النص عن أن التسمية عند الغزالي مرتبطة باختلاف الحال؛ إذ يتغير الاسم بتغير العلاقة بين اللطيفة والنفس الشهوانية. فالمطمئنّة هي التي يسكن اضطرابها، واللوّامة هي التي تدافع عن مقتضيات الشهوة وتعترض عليها، والأمّارة هي التي تذعن لها وتستجيب لدواعيها. وبذلك يبدو أن الأسماء الثلاثة تؤدي وظيفة وصفية تكشف عن أحوال مختلفة، أكثر مما تؤسس في هذا الموضع تحديداً لتقسيم ماهوي إلى ذوات أو طبقات مستقلة.

2-5. دلالة النفس الأمّارة

تزداد دلالة النفس الأمّارة وضوحاً في ضوء استدراك الغزالي نفسه؛ فبعد أن يصفها بأنها النفس التي أذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان، يقول: وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمّارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول، أي النفس بمعنى القوة الجامعة للغضب والشهوة (الغزالي، 2004، ج3، ص880).

تكشف هذه الإضافة عن مرونة المصطلح داخل البناء الغزالي؛ فالأمّارة لا تُفهم بالضرورة باعتبارها مرتبة مستقلة قائمة بذاتها، وإنما قد تحيل إلى معنى النفس الشهوانية نفسها بحسب السياق. ولذلك فإن قراءة الأسماء الثلاثة بوصفها حلقات متتابعة في سلم ثابت تحتاج إلى سند نصي يتجاوز هذا الموضع، ولا ينبغي أن تُبنى على مجرد ترتيب الأسماء أو اختلاف أوصافها.

2-6. حدود البحث في حقيقة اللطيفة

يضع الغزالي لبحثه في القلب والنفس حداً معرفياً واضحاً، إذ يقر بأن علاقة اللطيفة بالقلب الجسماني من المسائل التي تحيّرت فيها العقول، ويشبّهها بعلاقة الأعراض بالأجسام، أو الأوصاف بالموصوفات، أو المستعمل للآلة بآلته. ثم يعرض سببين لإحجامه عن الخوض في حقيقتها: أولهما أن ذلك من علوم المكاشفة، بينما يتجه كتابه إلى علوم المعاملة؛ وثانيهما أن البحث في حقيقتها يتصل بسر الروح الذي لم يُفصّل فيه النبي ﷺ، ولذلك لا يرى الخوض فيه مجالاً مناسباً لهذا الكتاب (الغزالي، 2004، ج3، ص879).

يمثل هذا التحديد أساساً منهجياً مهماً لقراءة النص؛ فالغزالي لا يقدم في هذا الموضع تصنيفاً ميتافيزيقياً لذوات النفس، وإنما يصف أحوالها وآثارها العملية. ومن ثم ينبغي أن يُفهم حديثه عن المطمئنّة واللوّامة والأمّارة في إطار هذا المقصد، أي بوصفه وصفاً لاختلاف الأحوال والعلائق والدواعي، لا تقريراً لطبقات وجودية مستقلة.

بناء على ذلك، فإن أي محاولة لتوسيع هذا البناء بإضافة مراتب أو تصنيفات أخرى تحتاج إلى دليل نصي مستقل يثبت نسبتها إلى الغزالي، وإلى تمييز واضح بين ما يقوله النص نفسه وما نشأ في مراحل لاحقة من التفسير والتصنيف الصوفي.

3. جنود القلب وبنية الاستقامة:

3-1. الجند الظاهر والجند الباطن

ينتقل الغزالي، بعد تحديده لمفهوم القلب والنفس، إلى بيان القوى التي تنتظم بها حياة الإنسان، فيقدم نموذج جنود القلب. ويقسم هذه الجنود إلى جند ظاهر تدركه الأبصار، ويتمثل في الجوارح، وجند باطن لا يدرك إلا بالبصيرة (الغزالي، 2004، ج3، ص881) ويقسم الجند الباطن إلى ثلاثة أصناف رئيسة: باعث ومستحث على جلب النافع أو دفع الضار، ويتمثل في الشهوة والغضب وتعبّر عنهما الإرادة؛ ومحرك للأعضاء، وهو القدرة؛ ومدرك للأشياء، وهو العلم والإدراك (الغزالي، 2004، ج 3، ص882).

لا ينظر الغزالي إلى هذه القوى في أصل وجودها بوصفها شراً محضاً؛ فالشهوة والغضب يؤديان وظائف ضرورية في حفظ الإنسان، وإنما تتحدد قيمتهما بحسب كيفية توجيههما واستعمالهما. ولذلك يشبههما بالجنود الذين يحتاج إليهم القلب في رحلته، إذ يقول إن القلب افتقر إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق (الغزالي، 2004، ج3، ص881)، ومن ثم فإن اختلال السلوك لا يرجع إلى وجود هذه القوى في ذاته، وإنما إلى اضطراب العلاقة بينها وبين قوة الإدراك والعلم، وما يترتب على ذلك من اختلال في توجيه الإرادة والعمل.

3-2. مثال المملكة: تنظيم القوى وتوجيهها

يقرب الغزالي هذا البناء بمثال المملكة، فيجعل نفس الإنسان بمنزلة الملك، والبدن مملكته، والجوارح والقوى بمنزلة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة بمنزلة المشير الناصح والوزير العاقل، والشهوة كالعبد الذي يتولى جلب الطعام والميرة، والغضب كصاحب الشرطة (الغزالي، 2004، ج3، ص882-883).

لا تكتسب هذه القوى صلاحها من وجودها فحسب، بل من انتظام علاقتها بعضها ببعض؛ ولذلك يقول الغزالي: فكذا النفس متى استعانت بالعقل، وأدّبت بحمية الغضب، وسلّطتها على الشهوة... اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ويكشف هذا المثال عن تصور يقوم على التوازن والتوجيه، بحيث لا تكون الشهوة أو الغضب غايتين مستقلتين، وإنما قوتين ينبغي أن تعملَا في إطار تدبير العقل.

من المهم، مع ذلك، ألا تُحوَّل الصورة التمثيلية إلى نظام اصطلاحي مغلق؛ فالغزالي يستخدم التمثيل لتقريب العلاقات المعقدة بين قوى الإنسان، ويورد في هذا السياق أكثر من صورة توضيحية. ولذلك ينبغي التعامل مع المملكة بوصفها أداة تفسيرية تكشف طبيعة العلاقة بين القوى، لا بوصفها نظرية مستقلة ذات حدود اصطلاحية ثابتة.

3-3. الأصول الأربعة وتداخل القوى

يعمق الغزالي هذا التصور حين يقرر أن الإنسان تتركب فيه نزعات ترجع إلى أربعة أصول: الربانية، والشيطانية، والسبعية، والبهيمية (الغزالي، 2004، ج3، ص887). فالجانب البهيمي يتصل بالشهوة وما تستدعيه من طلب اللذة، والجانب السبعي بالغضب وما قد يترتب عليه من العدوان، في حين يعمل الجانب الشيطاني على إثارة هذه القوى وتوجيه بعضها إلى بعض، بينما يمثل الجانب الرباني أفق العقل والحكمة الذي ينبغي أن يضبط هذه الدوافع ويوجهها.

يكشف هذا التصور أن أحوال الإنسان لا تتحدد بعنصر واحد منفرد، وإنما تنشأ من تفاعل قوى ودوافع متعددة. وفي هذا السياق يصف الغزالي حالاً تصبح فيه العقول خادمة للشهوات، حتى تغدو وظيفتها استنباط الحيل لتحقيقها، فيقول إن عقول أكثر الخلق صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة (الغزالي، 2004، ج3، ص882). وتساعد هذه الصورة على فهم النفس الأمّارة من خلال غلبة دواعي الشهوة وانحسار وظيفة العقل الموجّه، لا من خلال افتراض انتقال النفس إلى ذات أخرى أو مرتبة وجودية مستقلة.

3-4. الإنسان بين مقتضيات الحيوانية وخصيصة المعرفة

يتصل بهذا البناء تصور الغزالي لموقع الإنسان بين الموجودات؛ فهو يرى أن خاصية الإنسان العلم والحكمة، وأن أشرف العلم معرفة الله وصفاته وأفعاله، ويضع الإنسان في منزلة وسطى بين البهائم والملائكة: فمن جهة التغذي والتناسل يشترك مع النبات، ومن جهة الإحساس والحركة الاختيارية يشترك مع الحيوان، بينما تتمثل خصوصيته في قدرته على معرفة حقائق الأشياء (الغزالي، 2004، ج3، ص885).

تتحدد قيمة الإنسان، وفق هذا التصور، بالطريقة التي يوظف بها قواه؛ فمن استعملها في طلب العلم والعمل الصالح اقترب من خصائص الملائكة، ومن جعل غايته اللذات البدنية وغلبت عليه مقتضياتها اقترب من حال البهائم.

ومن ثم فإن لفظ» الرتبة «في هذا السياق لا ينبغي أن يُحمل مباشرة على معنى مراتب النفس بوصفها مراتب وجودية مستقلة أو مراحل متعاقبة على نحو لازم؛ وإنما يدل هنا على موقع الإنسان وما يمكن أن ينتهي إليه بحسب وجهة استعماله لقواه ودوافعه .ويقتصر البحث على استعمال »الأحوال «للدلالة على الأوصاف المتغيرة التي يثبتها النص، أما» المراتب «فيُذكر بوصفه مصطلحًا تفسيريًا لا يُنسب إلى الغزالي في هذا الموضع ما لم يقم دليل نصي على ذلك.

3-5. القوى المدركة الباطنة

ينتقل الغزالي في حديثه عن الجند الثالث، أي قوة الإدراك، إلى تفصيل القوى التي تتوسط بين الإنسان والعالم المحيط به. فيقسم الإدراك إلى حواس ظاهرة أُسكنت المنازل الظاهرة، وإلى قوى باطنة جعلها في تجاويف الدماغ، وهي: الحس المشترك، والخيال، والفكر، والتذكر، والحفظ (الغزالي، 2004، ج3، ص882). ويبين أن هذه القوى تؤدي وظائف متكاملة في عملية الإدراك، بحيث لا يستغني الإنسان عنها في تحصيل المعرفة والتصرف في المدركات.

يشير هذا التصور إلى أن الغزالي يستفيد من نموذج معرفي ونفسي كان متداولاً في بيئته العلمية، ويوظفه في بناء تصوره لوظائف القلب وقواه، دون أن يجعل التفصيل الفسيولوجي غاية مستقلة في هذا الموضع؛ إذ يصرح بأن غرضه الأساس هو بيان الجنود الباطنة، وأن الاستطراد في تفصيل هذه القوى يجاوز مقصود الكتاب (الغزالي، 2004، ج3، ص882).

من هنا يتضح أن مفهوم القلب عند الغزالي أوسع من أن يختزل في معنى العاطفة أو الانفعال؛ فهو اللطيفة التي تتصل بالإدراك والعلم والإرادة وسائر القوى المؤثرة في الإنسان. ولذلك فإن ترجمة القلب في هذا السياق بمفهوم الوجدان وحده تؤدي إلى تضييق دلالته وإبعاده عن بنيته الاصطلاحية

في النص الغزالي. فالقلب، في هذا المستوى من التحليل، هو مركز التلقي والإدراك والتوجيه الأخلاقي، ومحلّ التفاعل بين القوى والدواعي التي يتشكل من خلالها سلوك الإنسان.

4. أحوال النفس بين التسمية والتحوّل:

4-1. الحال والمرتبة

تكشف قراءة الغزالي للنفس في الموضع المدروس عن أهمية التمييز بين الحال بوصفها وصفاً متغيراً للذات، والمرتبة بوصفها مفهوماً يوحي بترتيب ثابت أو متدرج. فالغزالي يصرح بأن اللطيفة الإنسانية توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، ثم يربط أسماء المطمئنّة واللوّامة والأمّارة باختلاف هذه الأحوال (الغزالي، 2004، ج3، ص880). ومن ثم يبدو أن الأسماء الثلاثة لا تشير، في هذا الموضع، إلى ذوات متمايزة، وإنما إلى أوصاف تتغير تبعاً لعلاقة النفس بالشهوة ومقتضياتها.

أما استعمال لفظ «المراتب» في وصف هذه الأسماء، فينبغي التمييز فيه بين المصطلح التفسيري الذي تستعمله بعض الدراسات في وصف أحوال النفس، وبين اللفظ الذي يرد في النص الغزالي نفسه. ولا يقدم هذا البحث مسحًا تاريخيًا شاملًا لتطور مصطلح «مراتب النفس»، ولذلك لا يجزم بمدى شيوعه في الكتابات اللاحقة؛ بل يقتصر على ملاحظة أن موضع التعريف المدروس يربط الأسماء باختلاف الأحوال، ولا يصرح فيه بتقسيم وجودي ثابت. وتظهر الدراسات المعاصرة المدرجة هنا اختلافًا في زاوية المعالجة: فبعضها يتناول حقيقة النفس وأبعادها الأخلاقية (الدوكالي، 2022)، وبعضها يدرس التشخيص والعلاج (حميدات، 2019)، وبعضها يتناول الأصول النفسية التربوية (المزّلم، 2024)، من غير أن تكون هذه العناوين وحدها دليلًا كافيًا على تاريخ المصطلح أو على نسبة تصنيف بعينه إلى الغزالي.

4-2. اللوّامة: حال المراجعة والمقاومة

تحتل النفس اللوّامة موقعاً دالاً في هذا التصور؛ إذ يصفها الغزالي بأنها النفس التي لم يتم سكونها، لكنها أصبحت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها، وتلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه (الغزالي، 2004، ج3، ص880). ويكشف هذا الوصف عن حضور فعل المراجعة والمقاومة؛ فالنفس لم تستسلم لمقتضيات الشهوة، ولم تبلغ في الوقت نفسه حال السكون التام.

من هذه الزاوية، يمكن فهم اللوّامة بوصفها حالاً تتجلى فيها قدرة الوعي الأخلاقي على مقاومة الدوافع المخالفة لمقتضى الطاعة. وهي تتصل بذلك بالبنية التي عرضها الغزالي لجنود القلب، ولا سيما دور العلم والإدراك في توجيه القوى الأخرى (الغزالي، 2004، ج3، ص882). غير أن وصفها بالحال المتوسطة ينبغي أن يُفهم على سبيل التحليل لا بوصفه ترتيباً صريحاً وضعه الغزالي؛ فالنص يحدد خصائصها، لكنه لا يقرر أنها مرحلة لازمة في مسار نفسي واحد.

4-3. المطمئنّة: السكون وانحسار المنازعة

لا يربط الغزالي النفس المطمئنّة بزوال الشهوة، وإنما يصفها بأنها النفس التي سكنت تحت الأمر وزال عنها الاضطراب الناتج عن معارضة الشهوات (الغزالي، 2004، ج3، ص880). ويشير هذا الوصف إلى أن وجود الدوافع لا يتوقف، وإنما يتغير موقعها من عملية التوجيه؛ فالمسألة ليست إلغاء الشهوة، بل انضباطها وعدم تحولها إلى قوة منازعة للأمر.

يتصل هذا المعنى بصورة القلب التي يقدمها الغزالي لاحقاً، إذ يجعل الذكر والطاعة من أسباب جلاء القلب، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. ومن ثم يمكن النظر إلى الاطمئنان بوصفه نتيجة لحال من الاستقامة والسكينة، لا بوصفه اسماً لذات مستقلة. ويغدو هذا المعنى أكثر وضوحاً عند ربطه بنموذج مرآة القلب الذي يقدمه الغزالي في حديثه عن الجلاء والرين.

5. ديناميّة أحوال القلب:

5-1. مرآة القلب وتراكم الآثار

يقدم الغزالي مرآة القلب نموذجاً لتفسير ما يطرأ على القلب من تغيرات؛ فبعد حديثه عن تأثير الشهوة والغضب والشيطان، يقول: فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب (الغزالي، 2004، ج3، ص888). ويترتب على ذلك أن الآثار المحمودة تزيد القلب جلاء وإشراقاً، في حين تتراكم الآثار المذمومة عليه حتى يصير كالدخان الذي يحجب صفاء المرآة، وهو ما يربطه الغزالي بمفهوم الطبع والرين، مستشهداً بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، يعزز الغزالي هذه الصورة بما ينقله عن ميمون بن مهران من أثر الذنب في القلب، وبما يورده من حديث القلوب أربعة في السياق نفسه (الغزالي، 2004، ج3، ص888). وتُستثمر هذه الروايات في بناء الصورة التفسيرية لحركة القلب بين الجلاء والكدر. ولا يتوقف البحث هنا عند الحكم على أسانيدها، وإنما يتناولها من حيث وظيفتها في بناء تصور الغزالي عن أحوال القلب.

تتميز صورة المرآة كذلك بإمكان التغير؛ فالذنب يترك أثراً، والتوبة تصقل القلب، والحسنة تمحو أثر السيئة، وإن كان الغزالي يبين أن النور قد ينقص مع تكرر الأثر (الغزالي، 2004، ج3، ص888). ومن هنا يمكن الربط بين نموذج المرآة ونموذج أحوال النفس: فكلما تراكمت الآثار المظلمة اشتد سلطان الدوافع، وكلما ازداد الجلاء والصفاء قويت قدرة القلب على الاستجابة للأمر.

غير أن الربط المباشر بين الأمّارة والكدورة، وبين المطمئنّة والجلاء، يظل استنتاجاً تحليلياً يستند إلى الجمع بين مواضع متفرقة من النص، وليس تعريفاً صريحاً قدمه الغزالي بهذه الصيغة. ولذلك ينبغي التمييز بين ما يقرره النص مباشرة وما يستخلصه الباحث من ترابط عناصره.

5-2. المرآة والعلم والاستعداد الفطري

لا تقف صورة المرآة عند حدود الأخلاق، بل يستخدمها الغزالي في تفسير عملية المعرفة؛ فالقلب عنده بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلوّنات، والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة (الغزالي، 2004، ج3، ص889). ومن ثم فإن صفاء القلب أو كدره يؤثر في قابليته لإدراك الحقائق.

يذكر الغزالي أسباباً تحول دون حصول المعرفة، منها كدورة القلب بالمعاصي، والجهل بالجهة التي يُطلب منها المعلوم، وغير ذلك من الحجب التي تحول بين القلب وبين المعرفة (الغزالي، 2004، ج3، ص889–890). وفي المقابل يقرر أن كل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق (الغزالي، 2004، ج3، ص890). وبذلك يجمع تصوره بين استعداد أصلي للمعرفة وبين عوارض مكتسبة قد تحجب هذا الاستعداد أو تحد من فاعليته.

تكشف هذه العلاقة عن تداخل البعد الأخلاقي والمعرفي في تصور الغزالي؛ فحالة القلب من جهة صفائه وكدره لا تنفصل عن قدرته على الإدراك. ومن هنا يمكن فهم أحوال النفس الثلاثة ضمن بنية أوسع لا تقتصر على السلوك الأخلاقي، وإنما تمتد إلى علاقة القلب بالمعرفة والحق.

5-3. الخواطر وتجاذب القلب

ينتقل الغزالي بعد ذلك إلى مستوى أكثر حركة، هو مستوى الخواطر التي تسبق الأفعال؛ فيقول: مبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم (الغزالي، 2004، ج3، ص903)، ويصف الخواطر بأنها المحركات للإرادات (الغزالي، 2004، ج3، ص902). وبهذا تصبح حركة القلب مرتبطة بسلسلة تبدأ بالخاطر، ثم تنتقل إلى الرغبة والعزم، وصولاً إلى الفعل.

في هذا السياق يعرض الغزالي أثر الوسوسة، ويشبه القلب بالقبة التي تحيط بها أبواب، ثم ينتهي إلى أن القلب متجاذب بين الشيطان والملك (الغزالي، 2004، ج3، ص902–903). كما يستشهد بأحاديث تصف تقلب القلب، منها قوله ﷺ: قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها، وقوله: قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن (الغزالي، 2004، ج3، ص896).

تنسجم هذه النصوص مع فكرة قابلية الحال للتغير؛ فالقلب ليس في حالة واحدة بصورة دائمة، وإنما يتأثر بما يَرِد عليه من خواطر ودواعٍ ومؤثرات. ومن ثم يمكن فهم اختلاف أحوال النفس في ضوء هذا التفاعل المستمر، دون افتراض أن كل اسم من أسمائها يمثل طبقة مستقلة وثابتة.

يضيف الغزالي أن الشهوة والهوى من أهم المداخل التي يستعملها الشيطان في التأثير في القلب، فيقول إن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، ويقرر أن القلب الخالي من الهوى أضيق مداخل الشيطان (الغزالي، 2004، ج3، ص904). ومن هنا يتضح أن معالجة الحال لا تنفصل عن معالجة دوافعها ومقدماتها، وهو ما يمهد للبعد العلاجي في حديثه عن رياضة النفس وتهذيب الأخلاق.

5-4. بابا القلب: التعلم والإلهام

يوسع الغزالي نموذج حركة القلب من خلال حديثه عن وجهة إقباله؛ فيقول إن للقلب بابين: باب مفتوح إلى عالم الملكوت... وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة (الغزالي، 2004، ج3، ص897). ويؤدي انشغال القلب بالمحسوسات والخيالات الناتجة عنها إلى حجاب قد يحول دون بعض مراتب الإدراك التي يربطها الغزالي بعالم الملكوت.

في موضع آخر يميز بين العلم الذي يحصل بالاستدلال والتعلم، والعلم الذي يحصل في القلب من غير اكتساب، فيسمي الأول اعتباراً واستبصاراً، والثاني إلهاماً (الغزالى2004، ج3، ص894). ويربط الغزالي حصول العلوم الإلهامية بالمجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق والإقبال على الله تعالى (الغزالى، 2004، ج3، ص895).

على هذا الأساس يمكن فهم الإلهام بوصفه كيفية من كيفيات حصول المعرفة في القلب، لا بوصفه بالضرورة اسماً لمرتبة مستقلة من مراتب النفس. وهذا التمييز مهم عند مقارنة مفهوم الإلهام بالتقسيم السباعي المتداول؛ فالتقارب اللفظي بين الملهمة والإلهام لا يكفي لإثبات أن الغزالي أدخل الملهمة ضمن سلم محدد لمراتب النفس. كما لا يصح الانتقال من عدم ثبوت هذا الإدراج إلى القول إن الغزالي ينفيه؛ فالقدر الذي تسمح به النصوص المدروسة هو عدم ثبوت النسبة في هذا الموضع.

5-5. الفطرة والاستعداد والتحول

يحتل مفهوم الفطرة موقعاً وسيطاً بين الاستعداد الأصلي وما يطرأ على القلب من تغير؛ فالغزالي يستشهد بحديث كل مولود يولد على الفطرة، ثم يقرر أن القلوب متفاوتة في الفهم نتيجة أسباب تتصل بحالها، ومنها نقصان في ذات القلب، وكدورة المعاصي، والعدول عن الجهة التي يُطلب منها المعلوم، والحجاب، والجهل بالجهة التي يُطلب منها المعلوم (الغزالي، 2004، ج3، ص889–890). على هذا الأساس، لا يبدو مفهوم الفطرة عند الغزالي قائماً على افتراض أن الإنسان

يولد في مرتبة نفسية محددة، وإنما على وجود استعداد يمكن أن تتأثر فاعليته بما يطرأ على القلب. ولذلك فإن العلاقة بين الفطرة والأحوال يمكن صياغتها في صورة أدق: استعداد أصلي، وعوارض مكتسبة، وحال متغيرة. وتتيح هذه الصياغة تفسير التفاوت بين الناس دون تحويل الفطرة إلى مرحلة من مراحل سلم النفس.

5-6. القلب حصناً ومداخل التأثير

يقدم الغزالي صورة أخرى للقلب حين يشبهه بالحصن، فيقول: مثال القلب مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن". ويحدد لهذا الدخول منافذ تتصل بالصفات الغالبة على القلب، ومنها الغضب والحب والعجلة والشهوة. ويصف الغضب بأنه من القوى التي قد تعطل عمل العقل، حتى يقول: إذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان (الغزالي، 2004، ج3، ص908)، كما يربط بين الحب وبعض صور غياب التمييز، ويجعل العجلة من مداخل الشيطان (الغزالى، 2004، ج3، ص908-909).

يتصل ذلك بما سبق أن قرره من أن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، وأن تضييق مجاريه يكون بمجاهدة دوافعها (الغزالي، 2004، ج3، ص904-905). كما يربط مقاومة الوسواس بمنع الخواطر التي تشكل مداخل التأثير في القلب (الغزالى، 2004، ج3، ص906). وتكشف هذه المواضع مجتمعة أن معالجة أحوال القلب عند الغزالي لا تقوم على تغيير ذات النفس، وإنما على تهذيب القوى والصفات والخواطر التي تؤثر في اتجاهها.

6. القراءة النقدية والأفق العلاجي:

1-6. من تشخيص الحال إلى رياضة النفس

لا يقف الغزالي عند وصف أحوال القلب والقوى المؤثرة فيه، بل يصل التشخيص عنده بالمعالجة؛ إذ يصرح بأن كيفية مجاهدة هذه الجنود وتنظيم العلاقة بينها ستأتي في كتاب رياضة النفس (الغزالى، 2004، ج3، ص883) وبذلك تتخذ دراسة الأحوال وظيفة عملية، إذ لا تكون التسمية غاية في ذاتها، وإنما وسيلة لمعرفة موضع الخلل وطريق معالجته.

يتضح هذا المسار في قوله: فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر (الغزالى، 2004 ج3، ص888). وتكشف هذه العبارة عن تدرج في الممارسة يبدأ بضبط السلوك، ثم يتصل بالذكر، ثم بما يترتب عليه من انكشاف، وهو ما يجعل الحديث عن أحوال القلب مرتبطاً بمنهج عملي لا بمجرد تصنيف اصطلاحي. ويتفق ذلك مع تأكيد الغزالي أن المقصود من هذا الباب هو بيان أوصاف القلب وأحواله، لا الكشف عن حقيقته الماهوية.

تتضح الوظيفة العلاجية للذكر بصورة أكبر في حديث الغزالي عن علاقة الذكر بالشهوة والوسوسة؛ فالقلب الذي لم تستولِ عليه دواعي الشهوة يكون أقدر على الانتفاع بالذكر، في حين أن غلبة الشهوة قد تحول دون نفاذ أثره إلى أعماق القلب. كما يقرر أن الشيطان يطرق قلوب المتقين عند الغفلة، فإذا عاد القلب إلى الذكر خنس (الغزالى، 2004ج3، ص913). ومن ثم يصوغ العلاقة بين الوقاية والعلاج بقوله: الذكر الدواء والتقوى احتماء، ويجعل التقوى تخلياً للقلب عن الشهوات (الغزالى، 2004، ج3، ص914).

يضيف الغزالي الصلاة إلى هذا البناء بوصفها محكّ القلوب، إذ تظهر فيها محاسن القلب ومساويه (الغزالي،2004، ج3، ص914). ويمكن أن يُفهم من ذلك أن اختبار حال القلب لا يتم من خلال الاسم الذي يُطلق عليه فحسب، وإنما من خلال أثر هذه الحال في السلوك والعبادة ومدى حضور القلب فيها. وعلى هذا الأساس، تبدو الممارسة الدينية عند الغزالي مجالاً لاختبار الحال وتشخيصها بقدر ما هي وسيلة لمعالجتها.

6-2. حدود المقارنة وإمكاناتها مع علم النفس الحديث

تفتح معالجة الغزالي لأحوال النفس والقلب مجالًا محتملًا للمقارنة مع بعض مفاهيم علم النفس الحديث، غير أن هذه الدراسة لا تنجز مقارنة تطبيقية مكتملة؛ إذ لا تعتمد إطارًا نفسيًا حديثًا محددًا ولا تحلل نصوصًا نظرية حديثة على نحو موازٍ .لذلك يقتصر هذا القسم على ضبط حدود المقارنة والتنبيه إلى شروطها، ولا يقرر أسبقية تاريخية للغزالي أو تطابقًا بين مفاهيمه ومفاهيم علم النفس الحديث.

تقتضي أي مقارنة مستقبلية تحديد المفهوم الغزالي في سياقه الفلسفي والصوفي والأخلاقي، ثم تحديد المفهوم الحديث المختار ومصدره النظري وتاريخه، والنظر بعد ذلك في وجوه الاتفاق والاختلاف على أساس معايير معلنة .أما إسقاط المصطلحات الحديثة مباشرة على النص التراثي فقد يؤدي إلى إعادة تفسيره وفق جهاز مفاهيمي لم يكن جزءًا من بنيته الأصلية.

لا تسعى هذه الدراسة إلى إثبات أسبقية تاريخية للغزالي على علم النفس الحديث، ولا تدّعي إنجاز مقارنة تطبيقية بينهما؛ وإنما تحدد إمكانات المقارنة المستقبلية وشروطها، وفي مقدمتها ضبط المفاهيم وتعيين السياقات التاريخية والمعرفية لكل تصور.

6-3. حدود البحث ومجال صلاحية نتائجه

ينبغي قراءة نتائج هذه الدراسة في ضوء حدودها المنهجية. فهي تركز أساساً على كتاب شرح عجائب القلب في إحياء علوم الدين، مع الاستعانة المحدودة بمواضع أخرى عندما تقتضيها طبيعة

الموضوع؛ ولذلك لا تدعي استقراء جميع استعمالات الغزالي لمفهوم النفس وأحوالها في مجمل مصنفاته.

كما أن الإحالات إلى الصفحات تعتمد الطبعة التي اتخذتها الدراسة أساساً، وقد يختلف ترقيم الصفحات باختلاف الطبعات. ولهذا تظل الإحالة إلى الجزء والصفحة مرتبطة بالنسخة المعتمدة في البحث.

تتصل الحدود كذلك بطبيعة بعض النتائج؛ فبعضها قائم على تحليل صريح لعبارات الغزالي، في حين أن بعضها الآخر يمثل قراءة تركيبية تستخلص العلاقة بين مواضع متعددة من النص. ولذلك حرصت الدراسة على التمييز بين النص المنقول، والتحليل الذي يقدمه الباحث، والاستنتاج الذي يترتب عليه. ويسمح هذا التمييز بتحديد مجال كل نتيجة وعدم تحويل التأويل الجزئي إلى حكم عام على فكر الغزالي كله.

6-4. الترجمة والمصطلح وإشكالية نقل المفاهيم

تكشف الترجمات الإنجليزية لأجزاء من إحياء علوم الدين عن تحديات تتصل بنقل المصطلحات الغزالية، ولا سيما المصطلحات ذات الحمولات المتعددة مثل النفس والقلب والروح. وقد تتطلب الكلمة الواحدة ترجمة مختلفة باختلاف السياق الذي ترد فيه، وهو ما يجعل الاعتماد على ترجمة واحدة دون الرجوع إلى الأصل العربي محفوفاً بإمكان فقد بعض الفروق الدلالية.

تكتسب هذه المسألة أهمية خاصة في موضوع الدراسة؛ لأن الغزالي نفسه يلفت النظر إلى تعدد معاني الألفاظ، ويبين أن النفس لا تستعمل عنده في معنى واحد. ومن ثم فإن أي دراسة تبني حكماً على الفروق الدقيقة بين هذه المصطلحات تحتاج إلى مراجعة النص العربي الأصلي، ولا سيما في المواضع التي يتوقف فيها الاستنتاج على لفظ بعينه.

توفر الترجمات المتاحة، مثل ترجمة سكيلي لكتاب شرح عجائب القلب وترجمة وِنتر لكتاب رياضة النفس (Skellie, 2010; Winter, 1995)، أدوات مفيدة للمقارنة والفهم، لكنها لا تغني عن الأصل العربي في التحليل الاصطلاحي الدقيق. كما تمثل دراسة تشي زرينة سعاري (Che Zarrina Saari, 1998) مثالاً على أهمية المقارنة بين نصوص الغزالي المختلفة في دراسة مفاهيم القلب والروح والنفس والعقل؛ إذ تسمح هذه المقارنة بتتبع ثبات المصطلحات وتحول دلالاتها من مصنف إلى آخر.

الخاتمة:

خلصت الدراسة، في حدود النصوص التي تناولتها بالتحليل، إلى النتائج الآتية:

1. تبيّن أن الأسماء الثلاثة: المطمئنّة واللوّامة والأمّارة، ترد عند الغزالي في موضع التعريف بوصفها تسميات لأحوال اللطيفة الواحدة، إذ يصرّح بأن هذه اللطيفة توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها
2. ومن ثمّ، فإن تعبير أحوال النفس أدقّ في وصف هذا الموضع من حمل الأسماء على جواهر أو ذوات نفسية متمايزة، وإن كان مصطلح مراتب النفس شائعاً في الدراسات اللاحقة.
3. يتحدد اختلاف هذه الأحوال بحسب علاقة اللطيفة بالنفس الشهوانية، إذ يرتبط الاطمئنان بالسكون تحت الأمر، واللوامة بالمدافعة والاعتراض، والأمّارة بترك الاعتراض والإذعان للشهوات ودواعي الشيطان (الغزالي، 2004، ج3، ص880). وبذلك يقوم معيار التمييز على علاقة متحركة بين القوى الداخلية، لا على خصائص ذاتية ثابتة لذوات منفصلة.
4. يكشف تعريف الأمّارة عن قدر من التعدد الدلالي يمنع اختزالها في مرحلة ثابتة ضمن سلم تصاعدي؛ فالغزالي، بعد تعريفها بوصفها حالاً من أحوال اللطيفة، يجيز أن يراد بها النفس بالمعنى الأول، أي القوة الجامعة للغضب والشهوة (الغزالي، 2004، ج3، ص880). وهذا التعدد يؤكد ضرورة مراعاة السياق عند تفسير المصطلح.
5. تفسَّر حركة الأحوال في تصور الغزالي من خلال تفاعل القوى والخواطر المؤثرة في القلب، ولا سيما جنود القلب، والأصول الأربعة، وتجاذب الخواطر بين لمّة الملك ولمّة الشيطان. ومن ثمّ لا تكشف النصوص المدروسة عن مسار خطي لازم تنتقل فيه النفس من حال إلى أخرى انتقالاً نهائياً، بقدر ما تكشف عن أحوال قابلة للتغير تبعاً لغلبة القوى المؤثرة في القلب.
6. يربط نموذج مرآة القلب بين البعد الأخلاقي والبعد المعرفي في التجربة الباطنية؛ فجلاء القلب واستنارته يرتبطان بإمكان المعرفة، في حين تؤدي المعاصي والخواطر المذمومة إلى الكدورة والحجاب (الغزالي، 2004، ج3، ص888–890). أما تفسير اللوامة بوصفها لحظة إدراك للكدورة قبل استحكامها، فهو استنتاج تحليلي من الباحث يستند إلى مجموع النصوص، وليس تصريحاً مباشراً من الغزالي.
7. لا تكفي أوجه التشابه بين تصور الغزالي وبعض مفاهيم علم النفس الحديث لإثبات أسبقية تاريخية أو تطابق مفهومي؛ فالمقارنة العلمية تقتضي ضبط المفاهيم وتحديد سياقاتها التاريخية والنظرية قبل إثبات وجوه الاتفاق والاختلاف. ولذلك تظل المقارنة بين التصور الغزالي والمقاربات النفسية الحديثة مجالاً بحثياً مفتوحاً، لا نتيجة تاريخية تحسمها الدراسة الحالية.

توصي الدراسة بمجموعة من التوصيات على النحو التالي:

1. ضرورة مقارنة نصوص الغزالي في النفس والقلب ضمن دراسات لاحقة.
2. ضرورة إجراء استقراء مستقل قبل تعميم نتائج هذا البحث على سائر مؤلفات الغزالي.
3. عند مقارنة تصورات الغزالي مع علم النفس الحديث، يجب أولاً تحديد المفهوم الغزالي بدقة في سياقه الفلسفي والصوفي والأخلاقي.
4. ضرورة مراعاة السياق عند تفسير المصطلحات (مثل "النفس") نظراً لتعدد دلالاتها.
5. ضروري الرجوع إلى النص العربي الأصلي وعدم الاكتفاء بالترجمات، ولا سيما في المواضع التي يتوقف فيها الاستنتاج على لفظ بعينه.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع العربية:

- الدوكالي، نور الدين عاشور أحمد. (2022). حقيقة النفس الإنسانية في فكر الغزالي. مجلة العلوم الإنسانية، 38، 265–291. https://doi.org/10.59743/jhs.v38i.287
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. (2004). إحياء علوم الدين الأجزاء (1–4). بيروت: دار المعرفة.
- حميدات، ميلود. (2019). تحليل النفس وتشخيص أحوالها ووصف أمراضها وذكر علاجاتها عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة. المجلة العربية للطب النفسي، 30(1)، 69–76. https://doi.org/10.12816/0052939
- حسين، نازلي إسماعيل. (1990). النفس عند أرسطو والغزالي (رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس)
- المزّلم، قاسم أحمد صغير. (2024). الأصول النفسية التربوية عند الإمام الغزالي: دراسة تحليلية لمحتوى بعض المراجع. مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية، 3(3)، 53–89. https://doi.org/10.59628/jhs.v3i3.1006

المراجع الأجنبية:

- Che Zarrina Saari. (1998). Al-Ghazali's views on the heart, the spirit and the soul: A comparison between Ihya' 'Ulum al-Din and Al-Risalah al-Laduniyyah. Jurnal Usuluddin, 7, 193–208. https://doi.org/10.22452/usuluddin.vol7.12

- Gianotti, T. J. (2001). Al-Ghazālī's unspeakable doctrine of the soul: Unveiling the esoteric psychology and eschatology of the Iḥyāʾ. Brill.
- Skellie, W. J. (Trans.). (2010). Al-Ghazali: The marvels of the heart: Science of the spirit (Book 21 of the revival of the religious sciences). Fons Vitae.
- Winter, T. J. (Trans.). (1995). Al-Ghazali: On disciplining the soul and on breaking the two desires (Books XXII and XXIII of the revival of the religious sciences). Islamic Texts Society.